جئنا متأخرين » هكذا صرخ البروفيسور تلمون ذو الحساسية البالغة تجـــاه دروس التـــاريخ .

ولكن الشك الذي « رافق المشروع من البداية » كان بحاجة الى مناخ للتبلور يستكمل فيه شرعية الاعلان . فقد كان نشازا في جو ما قدمته القوة العسكرية من براهين مضادة خلقت ، طيلة ربع قرن كامل ، انتعاشا متصاعدا وازدهارا مسكرا لشرعية الامر الواقع ولا محدودية العدوان والاستهتار بالطرف المضاد من قوى الصراع . أي ، كان حياء الشك بحاجة الى قوة خارجية تكسر القناعات السائدة . وهذا ما حدث في حرب تشرين التي لم تقنع الاسرائيليين بقابليتهم الطبيعية للهزيمة فحسب ، ولكنها أقنعتهم بأن هذه الحرب ليست آخر الحروب التي يليها السلام . أقنعتهم ان السلام ـــ على الشروط الاسرائيلية ـــ أكثر من بعيد ، ولكنه مستحيل .

واستقر في الادراك الاسرائيلي العادي السبب الحقيقي للحروب المستمرة ، فليست « عدالة » الصهيونية هي التي تتطلب هذا الثمن الدموي ، ولكن ظلمها لشعب آخـــر هو الذي خلق حالة الحرب الدائمة ، فكانت الحرب نسفا للادعاء الصهيوني بـــأن فلسطين أرض بلا شعب ، والا فلماذا تشن كل هذه الحروب ؟.

وقد عدد الكاتب بوعز عفرون سقوط القناعات والحجج الصهيونية حول الشرعيـــة الاسرائيلية في فلسطين ، وأولها : الحجة الهرتسيلة الشائعة حول « ضائقة اليهود » والتي تتلخص في ان اليهود أقلية مطاردة لانها لا تملك أرضا لها وحقا في تشكيل أكثرية قومية في مكان ما . ويقول عفرون ردا على هذه الحجة ، انها كافية لتأسيس المطالبة بأرض ـــ ولكنها غير كافية لانتزاع هذه الارض من شعب اخر وتشريده بين الامم .

الحجة الثانية هي أن اليهود باستيطانهم هذه البلاد يعودون بالتقدم والثقافة علـــى سكانها . ويرد الكاتب بقوله : ولكن ذلك يشترط موافقة السكان الاصليين على قبول هذه العطايا !

الحجة الثالثة ، هي أن اليهود هم سكان البلاد القدامى ، وان الثقافة الوحيدة التي ازدهرت هنا كانت ثقافة يهودية .

ويقول الكاتب ان هذه الذريعة تشكل سابقة خطيرة لا تستطيع أسرة الشعـــوب الموافقة عليها ، ففي مجرى التطور التاريخي استبدلت شعوب كثيرة أماكنها ، فهل يحق لكل شعب المطالبة بأرضه السابقة وطرد أصحابها الحاليين بالقوة ! اذن ، بوسع العرب ان يقولوا انهم انشأوا في أسبانيا حضارة كبرى ، وعلى أساس ذلك فمن حقهم المطالبة بانتزاع أسبانيا من سكانها .

الحجة الرابعة هي أن الشعوب مدينة لليهود بدين اخلاقي كبير ، وعليها أن تمنحها أراضي .

ويرد الكاتب قائلا ان الذين لاحقوا اليهود هم الاوربيون ، فلماذا يمارس الاوربيون هذا الكرم على حساب شعب لم يلحق بنا الاذى !

ويناقش بوعز عفرون محاولات الصهيونية التغلب على ضعف هذه الحجج بشتى الاجتهادات لافتعال قاعدة للشرعية الاسرائيلية ، منها نشوء شعب عبري جديد ، ومنها وعد بلفور الذي « وضع قاعدة لمكانتنا القانونية في البلاد » ولكنه يرفض هذا الادعاء ، لانه ليس من حق دولة مستعمرة مثل بريطانيا ان تمنح مثل هذا الحق .

ولا يبقى من المحاكمات الفكرية الا الذريعة الرسمية السائدة وهي ذريعة القوة ، التي مثلها الجنرال ديان في مرحلة ما قبل حرب تشرين ، وهي تعتمد على الاعتراف الصريح